الخلافــة العباسيــة
فــي
شعـــــر البحتـــري

د. فاضل عواد احمد

كلية السلام الجامعة

المقدمة

بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى سنة ١١هـ وانفتحت بوابة السقيفة[١]، دب الخلاف بين المسلمين – مهاجرين وأنصار – لاختلافهم فيمن يكن الخليفة لأخذ البيعة له؟ فتعالت الأصوات وتباينت الآراء حتى مدت الأيدي لمبايعة الخليفة الجديد، فاقتنع البعض، وامتنع آخرون، والتزم الصمت من رأى في سكوته راحة لنفسه وخيراً لغيره، ووحدة لصف المسلمين، واجتماعاً لكلمتهم، وبدأت الخلافة الراشدية بأبي بكر الصديق ﷺ، فانقلب البعض على أعقابهم فكانت الردة[٢]، وادعى البعض النبوة[٣]، فحاربوا أنفسهم قبل أن يحاربوا غيرهم، فأخمدت الفتنة ولوا إلى حين، وخفتت أصوات الأدعياء والمعارضين، واستقر أمر الخلافة أيام الصديق ﷺ، ولكن العقل الإسلامي أخذ يبحث في شرعية الخلافة أو الإمامة[٤]، ليرد الحق إلى أهله، ويعتلي منبر الخلافة من يستحقه، نسباً وأصالةً ونسباً، وأصبحت الخلافة الشغل لعامة المسلمين، فتحرك المعارضون واهتز المخالفون، ووقعت أحداث جسام وفتن عظام واستشهد بسببها عمر وعثمان وعلي (رضوان الله عليهم)[٥]، وتنازل الحسن بن علي (عليهما السلام) سنة ٤١هـ[٦] عن الخلافة لمعاوية، حقنا للدماء وحفظاً لأرواح المسلمين، وبدأ العصر الأموي بإزالة نظام الشورى الإسلامي ليحل محله مبدأ الوراثة والملك، لتصبح الخلافة إرثاً محضاً، وملكاً خاصاً، لا يجوز الخوض فيه والاعتراض عليه، ثم سار على هذا النهج الخلفاء العباسيون حين حذوا حذوهم، وأيدوا سياسة التوريث في الحكم، وصاروا يأخذون البيعة لولاة العهود لئلا ينفرط عقد الخلافة وتهتز أركانها، وتضيع مقاليدها، ولا أدل على ذلك ما قام به المتوكل العباسي حين أخذ البيعة لأولاده الثلاثة دفعة واحدة سنة ٢٣٥[٧]هـ، ولم يستتب الأمر، إذ خلع البعض وقتل آخرون[٨]، وبسبب الخلافة اقتتل أبناء النسب الواحد، فالعلويون يرون أنهم أجدر الناس بها، وأكثرهم أهلاً للخلافة، لأنهم من آل البيت المطهر التي نزلت الآيات مؤكدة ذلك، ومهبط النبوة، وبوابة التشريع، وطليعة الإسلام ومادته، أما الأمويون فقد عدّوا الخلافة قضاء وقدراً، ولا يمكن ردّها أو الاحتجاج عليها، وهم أحق بها من غيرهم ما دام جدهم واحدا[٩]، أما العباسيون فمن ينكر حسبهم ونسبهم وجدهم العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، الذي استسقى بشيبته عمر ﷺ، فكان لكل فريق منهم حججه وبراهينه التي لا تنكر، ومن ثم أصبحت الخلافة أخطر مسألة تعرض لها المسلمون أبان العصر الراشدي والأموي والعباسي، فاستبدل التاريخ مراده ليكون الدم هو اللون الوحيد الذي تكتب به الرقع والرسائل والعهود، فجرت وقائع وحروب وفتن، وانقسم المسلمون فرقاً وأحزاباً، وأصبحت الخلافة محدقة بأخطار جمة، وإذ أخذت كل فرقة تقدم ما لديها من أدلة نقلية وعقلية لتثبت صدق دعواها وصحة

إدعائها، وشرعية مطلبها، فمنهم أكد أن الإمامة بالاتفاق والإختيار، وآخرون يرون أن الإمامة تثبت بالنص والتعيين[١٠]، والقائلون بالرأي الأول: «يقبلون إمامة كل من اتفقت عليه الأمة، أو أي جماعة معتبرة من الأمة، إما مطلقاً وإما بشرط أن يكون قرشياً على مذهب قوم، أو هاشمياً على مذهب آخرين، أو خارجياً على مذهب الخوارج»[١١]، أما أصحاب القول الثاني – فهم غالبية الشيعة – فقد جعلوا الإمامة في أبناء عليعليه السلام ولكنهم اختلفوا فيمن يكون الإمام[١٢]؟ إذ لكل فرقة رأيها في مسألة الإمامة[١٣]، لهذا كان على الخلافة العباسية أن تدافع عن نفسها بكل الوسائل التي تجعلها أهلاً للوقوف والصمود أمام الصعاب التي واجهتها في القرن الثالث الهجري، الذي شهد كثرة الاضطرابات وظهور الدعاة والخارجين على الخلافة من أعراب وولاة وقادة وزط وخرمية وزنج وقرامطة وشغب الجند والعامة، وخروج الولايات على ولاتها، فضلاً عن انشغال الخلافة بأمر العلويين والدفاع عن الثغور الإسلامية ومحاربة الروم وغيرهم، لهذا كانت الخلافة بحاجة إلى من يثبت دعائمها ويؤازرها، وينتصر لها، سواء أكان ذلك بالسيف أم القلم!! فكان للقراء دورهم الإعلامي وأثرهم البالغ في تأجيج المشاعر وإذكاء روح التضحية لنصرة المنبر العباسي، وهذا ما كان من الشاعر البحتري[١٤]، الذي كان شاهد عيان لمجريات العصر وأحداثه ووقائعه، ذلك العصر الذهبي الذي وصلت فيه الحضارة العربية الإسلامية إلى أعلى مراتب الكمال، ومراقي السمو والازدهار والتأثير، ليكون شعره وثيقة تأريخية نستشرف من خلاله على قيم العصر الدينية والمثل الإسلامية التي يجب أن تتصف بها الخلافة وتتجسد بالخليفة ليكون أهلاً لحراسة الدين وسياسة الدنيا[١٥]، وسواء أكان البحتري ناقلاً أميناً للأحداث والوقائع أم لم يكن كذلك، ولكنه تفحص وذكر ما ثبت عند الرعية واعتقدت به من قيم نبيلة وآثار جليلة لإعلاء شأن الخلافة والخليفة في نظر الخاصة والعامة، ومن ثم نحيط علماً بما ساد في ذلك الوقت من مثل دينية وأعراف اجتماعية لها علاقة صحيحة بأحوال الخلافة والرعية، إذ لكل قيمة موقعها وأثرها في تثبيت أسس الملك وشرعية الخلافة، وحفظ مقام الخليفة وهيبته وهذا ما قام به البحتري الذي اتخذ المعاني الإسلامية مادة لشعره، ليكون أبلغ أثراً في النفوس، وأكثر تعلقاً في القلوب، فأكد فكرة التفويض الإلهي والاستخلاف في الأرض حين مدح المتوكل العباسي بقوله:

إمامٌ يراه الله أولى عباده ... بحق وأهداهُم لقصدِ سبيلهِ

خليفته في أرضهِ ووليّه الـ ... رضيُّ لديه، ابن عمّ رسولهِ[١٦]

مشيراً إلى ما قاله أبو جعفر المنصور في خطبة له بمكة: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه ...»[١٧] فقال:

خليفة الله ما للحمد منصرفٌ إلا إلـى نِعـمٍ أصـبحتَ توليهـا
فـلا فضـيلةَ إلا أنـت لابُسـها ولا رعيـةَ إلا أنـتَ راعيهـا[١٨]

وجعل الخلافة تخويلاً الهيا، لا اعتراض عليه حين مدح المهتدي بالله بقوله:

لقـد خـوّل اللهُ الإمـامَ محمـدا خصوصَ معالٍ في قريشٍ عمومُها[١٩]

ومن ثم التفت الشاعر لمعان تدل على الرفعة والتفرد فأخذ بفكرة الاصطفاء والاختيار لتكون عوناً للتفويض الإلهي في الحكم والسياسة، فقال مادحاً المتوكل:

أمـا والـذي أعطـاك فضـلاً وبسـطة على كل حيّ واصطفاك على الخلقِ[٢٠]

ثم قال فيه أيضاً:

أقسـمتُ بالبيـت الحـرامِ وحرمـة الشـهر الأصـم[٢١]
لقـد اصـطفى رب السـماء لـه الخلائـق والشيـم[٢٢]

وقال مادحاً المهتدي بالله:

علـم اللهُ سـيرةَ المهتـدي بـالله فاختـاره لمـا يختـار
صـفوةُ الله والخيـارُ مـن النـاسِ جميعـاً وأنـت منهـا الخيـار[٢٣]

وبعد التفويض والاصطفاء والاختيار جعل الخلافة من قضاء الله وقدره، لما في ذلك من تأييد للخلافة العباسية بتلك الفكرة التي تعد أصلاً من أصول العقيدة الإسلامية فقال مكملاً قصيدته:

بـارك اللهُ للخليفـةِ فـي الملـكِ الـذي حـازه لـه المقـدارُ
رتبـة مـن خلافـة الله قـد طالـت بهـا رِقبـةٌ وانتظـارُ
كلهـم عـالمٌ بأنـك فيـهم نعمـةٌ سـاعدت بهـا الأقـدارُ[٢٤]

بل جعل اسم الخليفة من القدر الإلهي حين مدح المستعين بالله:

أراد اللهُ أن تبقـى مُعانـا فقـدّر أن تُسـمّى مسـتعينا[٢٥]

وبعد أن أتبع العباسيون مبدأ الوراثة في الحكم والتزموه نهجاً في حياتهم السياسية، كان لابد أن يعرّج الشاعر لذلك الأمر الخطير في تأريخ الحكم الإسلامي، ما دامت الخلافة جاءت تبعاً للمشيئة الإلهية، وأصبحت حقاً مشروعاً لا جدال فيه، فقال مادحاً المتوكل:

وأرى الخلافةَ وهي أعظمُ رتبةً حقــاً لكــم ووراثــةً لا تُنــزَعُ

أعطاكموها اللهُ عن علمٍ بكم واللهُ يعطي ما يشاءُ ويمنعُ(٢٦)

وقوله فيه أيضاً:

اللهُ آثــرَ بالخلافــةِ جعفــرا ورآه ناصــرَها الــذي لا يُخــذَلُ

هي أفضلُ الرتبِ التي جعلت له دونَ البريةِ وهو منها أفضلُ(٢٧)

والخلافة خيمة قد ضربت عليهم، وهم أحق بها، ولا يجوز انتقالها إلى غيرهم بعد أن صارت إرثاً خالصاً ورثوه أصالة لا انتحالاً، ثم أردف الشاعر تلك المعاني بمكة بطحائها، إذ هي واسطة العقد وقبلة المسلمين، فقال فيه أيضاً:

لكم كلُّ بطحاءَ بمكةَ إذ غدا لغيــركم ظهرانُهــا وجبالُهــا

وأنتم بنــي العباس عمّ محمدٍ يمــينُ قــريشٍ إذ ســواكم شــمالُها

وقــد ســرّني أن الخلافــةَ فــيكمُ مخيمّــةٌ، مــا إن يخــافُ انتقالُهــا

لكم إرثها والحق منها، ولم يكن لغيــركمُ إلا آســمُها وآنتحالُهــا

واقترنت بالخلافة مفردات أخرى توحي بالهيبة والتمكن والقوة والاستيلاء، بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فكانت بحاجة إلى من يسسها ويسيطر عليها، ويحافظ على ثغورها، عدلاً وحزماً وعزماً، إذ كان للعباسيين دورهم الحضاري المؤثر في تقوية أركان الملك ودعائمه، والحفاظ على هيبة الخلافة، لذا استخدم البحتري كل ماله علاقة بإعزازها وإعلاء شأنها، فأورد في شعره: الملك، السلطان، لما فيهما من معاني السيطرة والإحاطة والهيمنة، فقال مادحاً المعتمد على الله:

مَلِــكٌ تحيّــه الملــوكُ ودونــه سيما التّقى وتَخشّعُ الزُّهادِ(٢٨)

وقال في المعتز بالله:

وغدوتَ من بين الملوكِ موفّقاً منه لأيمنِ حلّةٍ(٢٩) **ومنازلِ**(٣٠)

ولكي تكمل صورة الملك وتبين أمرها فقد جاء بما يؤكدها ويعززها فقال فيه أيضاً:

مَلِــكٌ يمــلأُ العيــونَ بهــاءً حــين يبــدو بتاجــهِ المعقــودِ(٣١)

ومن ثم فقد استحضر الرموز الدينية التي عرفت بعظمة الملك، وسعة السلطان، فاتخذ من ملك سليمان عليه السلام مثلاً ورمزاً لذلك، فقال في المتوكل:

مُلك كملكِ سليمانَ الذي خَضعتْ لـه البريـةُ: قاصـيها ودانيهـا[٣٢]

ثم ذكر الرتبة الموحية بالشمول والامتداد لتكون متسعة، ومتفقة مع عظم الدولة وهيبة الملك ومقام الخلافة، فاستخدم مفردة: السلطان، فقال فيه أيضاً:

راموا النجاةَ، وكيف تنجو عصبةٌ مطلوبةٌ باللهِ والسلطانِ[٣٣]

وقد قرن الشاعر بين السلطنة والمشيئة الإلهية، ما دام ذلك الجاه وتلك الرتبة الدينية من الله عز وجل فقال فيه أيضاً:

ورآك العبـادُ مـن نِعـم الله عليهـم، وطوْلـهِ وامتنانـهِ

علـم اللهُ كيـف أنـت فأعطـاك المحـلَّ الجليـلَ مـن سـلطانهِ[٣٤]

وكان لابد للشاعر أن يولي اهتمامه بالقيم الإسلامية، ويلتفت إليها، ويؤكدها في مديحه، بعد أن ظهرت أصوات تفصل بين الخلافة والإمامة، وأخذ التأويل مساره في مدارات الفكر الإسلامي والحكم والسياسة، لما في الإمامة من معان توحي بأسبقية آل البيت بالخلافة، فأزال الشاعر ذلك الاعتقاد بشدة، وبأن الخليفة هو الأمين والإمام والخليفة، وقد أكد على تلك المعاني في أغلب قصائده فقال في المتوكل:

إليـك أمـينَ الله مالـت قلوبُنـا بـإخلاص نُـزّاعٍ إليـك هُيـامِ

تُصلي، وإتمام الصلاة اعتقادنا بأنـك عنـد اللهِ خيـرُ إمـامِ[٣٥]

وقال رابطاً بين المقامين: مقام الإمامة والخلافة:

قُل للإمام الذي عمّتْ فواضلـهُ شرقاً وغرباً فما نُحصي لها عددا

اللهُ ولاك عـن علـمٍ خلافتَـه والله أعطاكَ ما لم يعطهُ أحد[٣٦]

ولا أدل على ما تلك المعاني من آثار جليلة وتأويلات شرعية حين يقول:

ولـو جُمـعَ الأئمـةُ فـي مقـامٍ تكـون بهـم، لكنـتَ لهـم إمامـاً[٣٧]

فالإمامة قد ارتبطت بأسمى العبادات الشرعية، وأزكاها عملاً، وأعلاها منزلة، ألا وهي إقامة الصلاة وأدائها، والتمسك بها، إذ هي عمود الشريعة، ورتاج الدين وبهاء الخلافة، لهذا عدت الإمامة صنوا للخلافة، إذ لا يجوز التفريق بينما أبداً، لأنها السعي الصادق الذي يؤجر عليه

الخليفة والرعية، لما فيها من الفضل والرفعة والكرامة، فهي الدليل على وحدة الكلمة، واجتماع القلوب، وعز المسلمين، وهيبة الإسلام وسموه، فقال البحتري في المهتدي بالله:

هل الدينُ إلاّ في جهادٍ تقودنا إليه عجُالا أو صلاةٍ تقيُمها(٣٨)

وقد آثر الخلفاء العباسيون ارتداء البردة النبوية عند الصلاة، والتي أصبحت رمزاً روحياً، وإرثاً مقدساً عند المسلمين كافة، وفي ارتدائها استدعاء لروح النبوة الشريفة وهديها، ومن ثم تجعل مرتديها في موقع الإجلال والهيبة، لما فيها من قوة الاستحضار الروحي لصور الطهر والقداسة وأنوار الرسالة ومشارق الهداية، لهذا جعلوها للمناسبات العزيزة، والآفات الشريفة، ومما يؤكد ذلك الاستحضار قول الشاعر واصفاً المتوكل:

يجدون رؤيتك التي فازوا بها من أنعُمِ الله التي لا تُكفَر

ذكروا بطلعتك النبيّ فهللوا لما طلعت من الصفوف وكبّروا

إلى قوله:

صلّوا وراءك آخذينَ بعصمةٍ من ربّهم وبذمة لا تُخفرُ(٣٩)

ثم ينتقل إلى وصف يجعل من الخليفة صورة تتجسد فيها مخايل النبوة ليكبر في عيون الرعية وأن لم يتصف بها لكنها المبالغة الشعرية ليقول:

وشبيه النبيّ خَلقاً وخُلقاً ونسيب النبي جدّا، فجدّا(٤٠)

ثم يقول مردفا:

وإنّا نرى سيما النبيّ محمدٍ وسنتَه في وجهك الضاحكِ الطّلقِ(٤١)

ومن الحالات الملازمة لارتداء البردة النبوية الشريفة، الخشوع والتواضع لله سبحانه وذلك لجلالة الموقف وعظمة المقام فقال:

حتى انتهيتَ إلى المصلى لابساً نورَ الهدى يبدو عليك ويظهرُ

ومشيتَ مشيةَ خاشعٍ متواضعٍ لله، لا يُزهى ولا يتكبّرُ(٤٢)

ثم يقف الخليفة مذكراً المسلمين بأمور دينهم ودنياهم معتمداً على ماله من ملكات الإعراب والفصاحة والبيان:

أيدّت من فصلِ الخطابِ بحكمةٍ تنبي عن الحق المبين وتخُبرُ

ووقفت في بردِ النبيّ مذكراً بالله، تندرُ تارةً وتبسّرُ

ومواعظَ شفتِ الصدوَر من الذي ... يعتادهـــا، وشفاؤهـــا متعـــذّرُ
حتى لقد علم الجهولُ وأخلصت ... نفس المردّى، واهتدى المتحيّرُ(٤٣)

والدعاء للمسلمين سنة نبوية التزم بها الخلفاء:

فالبرُ أجمعُ في ابتهالك داعياً ... للمسلميـــن ونُسكـــكُ المستقَبَّـــلِ
عرفتنـا سـننَ النبـيّ وهديـهِ ... وقضـيتَ فينـا بالكتـابِ المُنَـزلِ
حقـاً ورثـت عـن النبـيّ وإنمـا ... ورثَ الهدى مُستخلفٌ عن مُرسَلِ(٤٤)

وقد أصبح الإرث النبوي رمزاً لشرعية الخلافة، فمن حازه حازها، ومن فقده فقدها، إذ تمسك العباسيون بذلك الإرث الجليل الذي يثير في الرعية أسمى الانفعالات وأصدقها، وحالات التوحد الروحي بمن يحوزه، ومن ثم يكون سبباً لانعقاد المحبة واستجلاب النصر والتأييد والمؤازرة عن طيب نفس ورضى، قال الشاعر في المعتز بالله:

الإمـــام المعتـــزّ بـــالله أولـــى ... هاشـــمي بالنصـــر والتأييـــدِ
وارث البـــرد والقضـــيب وحكـــم ... الله فـــي كـــل ســـيّرٍ وحســـودِ(٤٥)

وقال في المتوكل:

يتولـــى النبـــيُّ مـــا تتـــولاهُ ... ويرضـــى مـــن ســـيره مـــا تســـيرُ
حـــزتَ ميراثَـــه بحـــقّ مبيـــنٍ ... كـــلُّ حـــقٍ ســـواه، إفـــكٌ وزورُ
فلـكَ السـيفُ والعمامـةُ والخـاتمُ ... والبـــردُ والعصـــا والسريـــر(٤٦)

فإذا تأزمت الأمور، واختلت المقاييس، واختلفت الآراء، في أمر الخلافة وشرعيتها، فإن الميراث النبوي كفيل بحفظها، والحكم الفصل في حسم أمرها، فقال في المتوكل:

وسـرتَ بمُلـكٍ قاهـرٍ وخلافـةٍ ... ومالـك زهـوٌ، بـين ذيـنِ ولا كبـرُ
عليك ثيابُ المصطفى ووقارهُ ... وأنـتَ بـه أولـى إذا حصـحص الأمـرُ
عمامتـــهُ وسيفـــهُ ورواؤهُ ... وسيماهُ، والهدي المشاكلُ والنّجرُ(٤٧)

وكان للنسب العباسي المتصل بالدوحة النبوية الشريفة أثره في تأكيد شرعية الخلافة، واستمالة قلوب الرعية، والحصول على التأييد المعنوي والمادي بسببه، وقد افتخر العباسيون بنسبهم القرشي لاتصاله بالنبوة ومن ثم حيازتهم الميراث النبوي، وانتمائهم للعباس ﷺ عم النبي ﷺ فقال مذكراً بذلك النسب الشريف للمتوكل:

أيُّ امـــرئٍ يســـمو سمـــوكَ أو يجـــئُ بمثـــلِ جـــدّكْ
وعلـــى قُصـــيّك أو قُريشـــكَ أو نـــــزارك أو معـــــدّك
بـــاعٌ تمـــدّ بـــه النبـــوةُ والخلافـــةُ قبـــل مـــدّك
أحـــرزتَ ميـــراث الرســـولِ بُســـهمة العبّـــاس جـــدّك

إلى قوله:

وعليـــك مـــن ســـيما النبـــيّ مخايـــلٌ شـــهدتْ برشُـــدكْ[٤٨]

وقال في المعتز:

وأبيضُ من آل النبي إذا احتبى لســاعةِ عفـوٍ، فـالنفوسُ مواهُبـه[٤٩]

وكان للنسب العباسي أثره في رفد الخلافة بقيم مضافة تجعلهم أكثر قرباً وتأثيراً في قلوب الناس، إذ كان جدهم العباس ﷺ عمّا لرسول الله ﷺ وما أشرفها وأكرمها من صلة وقرابة!! وليس هنالك أفضل وأشرف من هذه الصلة والنسب، وكان لحادثة الاستسقاء بشيبة العباس أيام عمر وقعها لدى المسلمين، وهي مكرمة وفخر ما يزال صداها على المنبر العباسي، إذ أخذت الرعية تنظر إلى العباس وبنيه يعين الإجلال والإكبار، لأن الله سبحانه قد استجاب لدعوة العباس وسقي المسلمون آنذاك، وبقيت تلك الحادثة من الفضائل العباسية التي لا تنسى، وهذا ما التفت إليه الشاعر حين قال للمتوكل مستحضراً تلك الوقفة:

شـرفاً بنـي العبـاس إن أبـاكم عـــمُّ النبـــي وعيصـــهُ[٥٠] المتفـــرّعُ
إن الفضيلة للذي استسقى بـه عمـــرٌ، وشُفّـــع إذ غـــدا بُتَشفّـــعُ

إلى قوله:

من ذا يساجلكم وحوضُ محمدٍ بسـقاية العبـاس فـيكم يَشفـعُ[٥١]

وقال فيه أيضاً:

يتقيّـل العبـاسَ عـمَّ محمـدٍ ووصـــيّهِ فيمـــا يقـــولُ ويفعـــلُ[٥٢]
شرفٌ خُصِصتَ ومجدٌ باذخٌ مـــتمكن فـــوق النجـــوم مُؤثَّـــلُ[٥٣]

وذكر أن المتوكل قد استسقى واستجيب له وهذا ما جاء في قوله:

وزلفـــةٌ لـــك عنـــد الله تُظهرهـــا لنـــا ببرهـــان مـــا تـــأتي وتُبديهـــا
لمـا تعبّـد محـلُ الأرض واحتبسـت غـرُّ السـحاب حتـى مـا نرجّيهـا

وقمتَ مستقياً للمسلمين جَرت غُرُّ الغمامِ وحلّت من عزاليها
فلا غمامةُ إلا انهلَّ وأبلها ولا قرارةَ الاسال واديها[٥٤]

فما دام النسب قرشياً، متصلاً بالنبوة، ومقام العباس معروفاً ومشرفاً، فقد وجب على الرعية تقديم الطاعة والولاء، وكل ما يؤدي إلى دعم الخلافة ونصرتها وإعزازها، بعد أن حباهم الله بتلك الفضائل كما يقول البحتري للمتوكل:

اللهُ أعطاك المحبةَ في الورى وحباكَ بالفضل الذي لا ينكرُ
ولأنت املأُ للعيون لديهم وأجلُّ قدراً في الصدورِ وأكبرُ[٥٥]

فطاعة الإمام فرض واجب، والخروج عليه عصيان وكفر، وبهذا جاءت أبيات الشاعر في المتوكل:

قد جعلَ اللهُ إلى جعفرٍ حياطةَ الدينِ وقمعَ النفاقْ
طاعتهُ فرضٌ وعصيانهُ من أعظمِ الكفرِ وأعلى الشّقاقْ
من لم يبْحك النصحَ من قلبهِ فماله من دينه من خلاقْ[٥٦]

ولا صلاة مع العصيان والتمرد على السلطان والخروج عليه:

مخالفٌ أمرَكم لله عاصٍ ومنكرُ حقّكم لاقٍ أثاما
وليس بمسلمٍ من لم يقدمْ ولايتكم ولو صّلى وصاما[٥٧]

ولولا الشعر لما عرفنا آراء الشاعر وموقفه من الخلافة العباسية، سواء أكان صادقاً مع نفسه وواقع الحال، أم شاهد زور على عصره، ولكن طموحه أن يرى الخليفة متصف بكل مكارم الأخلاق والصفات الجليلة التي تجعله أهلاً لتسنم منبر الخلافة، وأن بالغ في شعره، فالمبالغة مقبولة أن لم تكن تزلفاً لاستدرار الهبات والجوائز، وخروجاً على النص الشرعي والقيمي، لأن الشاعر عين على الأحداث إن كانت صحيحة وليس من رأى كمن سمعا، والشعر هو الشاعر نفسه، وما حروف أبياته إلا مفردات حياته بكل تفاصيلها، لكن عندما يهتز الشاعر ويرتج ينطلق الباطن بكل ما فيه من رغبات مكبوتة، وطموحات خفية، وآمال ما اهتزت ولا ربت، فيكون الشاعر حينئذ تجربة إنسانية وفكرة وموضوعاً قابلاً للدراسة والتحليل والبحث والنظر، وهذا ما ورد في هذا البحث المقتضب فإن سهوت أو أخطأت فليعذرني من هو أكثر علماً وفهماً مني، إذ فوق كل ذي علم عليم، والله من وراء القصد.

النتائج

من خلال البحث توصلنا بعون الله تعالى إلى ما يلي:

١. ظهور فكرة التفويض الإلهي جلية في الخلافة العباسية وبأن الخليفة سلطان الله في أرضه ويحكم بأمره وهذا ما أكده المنصور في إحدى خطبه وكذلك البحتري في شعره.

٢. بروز فكرة الاصطفاء الإلهي لتكون رديفا للتفويض وقد ذكرها الشاعر أمام الخلفاء وتقبلوها منه، ولو كان الأمر عكس ذلك لما بقي الشاعر مردداً لتلك الفكرة، فقبولها دليل على تأييد وجودها، والإنسان مجبول على حب الثناء والاتصاف بتلك الفضائل السامية.

٣. كان للإرث النبوي الشريف قدسيته وأثره في تثبيت أمر الخلافة وتأكيد شرعيتها، وجعل الرعية مؤازرة مؤيدة لها.

٤. أكد الشاعر أن الخلافة العباسية مرتبطة بفكرة القضاء والقدر، وبهذا تغلق أبواب الاعتراض والاحتجاج عليها، ما دامت المشيئة الإلهية قضت وقدرت ذلك الأمر.

٥. كان للنسب القرشي أثره في اعتلاء منبر الخلافة ما دامت الإمامة في قريش، هذا ما أكده الحديث النبوي الشريف، ومن ثم كان للعباس عمّ النبي ﷺ ذلك المقام الرفيع الذي حازه لقرابته من الدوحة النبوية التي استظل بظلها واحتمى بحماها.

الهوامش

(١) سقيفة بني ساعدة، الكامل، ابن الأثير ٣٢٥/٢، تاريخ ابن خلدون ٣/٧.

(٢) الكامل، ابن الأثير ٣١٧/٢، ٣٥٤، ٣٥٦ تأريخ ابن خلدون ٨٤٤/٤-٨٨٥.

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) م. س ٣٣٩/٧.

(٥) استشهاد عمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم)، على التوالي: سنة ٢٣هـ، ٣٥هـ، ٤٠هـ، الطبري ١٩٠/٤، ١٩٣، ٣٦٥، ٣٩٦، ١٤٣/٥ – ١٥٢.

(٦) الكامل، ابن الأثير ٤٠٤/٢.

(٧) دهم: محمد المنتصر بالله، والمعتز بالله، والمؤيد بالله، الطبري ١٧٥/٩-١٧٦.

(٨) قتل المتوكل العباسي سنة ٢٤٧هـ ثم خلع المعتز والمؤيد في السنة نفسها، ثم قام المعتز بخلع أخيه المؤيد سنة ٢٥٢هـ، وكذلك قام المعتز بخلع المستعين بالله ثم الأمر بقتله في السنة نفسها، أمام المهتدي بالله فقد خلع ومات سنة ٢٥٦هـ/ انظر على التوالي: الطبري/٩/ ٢٣٠ ، ٢٣٧، ٢٤٤، ٣٤٨، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٨٩، ٤٥٦.

(٩) أرسل سليمان بن علي العباس إلى أبي العباس السفاح رسالة إليه يؤكد فيها على النسب الواحد فقال: «.... يا أمير المؤمنين، إنه قد وفد وفد من بني أمية علينا، وإنما قتلناهم على عقوقهم لأعلى أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف، والرحم تبل ولا تقتل، وترفع ولا توضع ...» فأمر السفاح بإيقاف مقتلة الأمويين، الكامل، ابن الأثير ٤٣١/٥ – ٤٣٢.

(١٠) تأريخ الفكر الفلسفي، د. محمد علي أبو ريان ص١٢١.

(١١) م . س ص ١٢١.

(١٢) تاريخ ابن خلدون ٣٤٩/٧-٣٥٦.

(١٣) كالزيدية والإمامية (الاثني عشرية) والكيسانية والإسماعيلية، م. س، ٣٤٩/٧-٣٥٦.

(١٤) أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ولد سنة ٢٠٦هـ، وعبادة أحد أجداده، ولد ومات بمنسيح – بين حلب والفرات – رحل إلى العراق فاتصل بجماعة من الخلفاء، أولهم: المتوكل العباسي ثم عاد إلى الشام ومات سنة ٢٨٤هـ، وفيات الأعيان/ ابن خلكان ٢١/٦، الإعلام/ الزركلي ١٢١/٨.

(١٥) تأريخ ابن خلدون ٣٣٨/٧.

(١٦) ديوانه، دار بيروت ٥١/١.

(١٧) عيون الأخبار، ابن قتيبة ١-٦٣٧/٢.

(١٨) ديوانه ٤٦/١.

(١٩) م. ن ١٢٤/١.

(٢٠) م. ن ٣٩٦/٢.

(٢١) الشهر الاصم: رجب اسمته العرب بذلك لأنهم كانوا فيه يكفون عن الحرب تعظيماً له.

(٢٢) م. ن ١٩/١.

(٢٣) م. ن ١٢٢/١-١٢٣.

(٢٤) م. ن ١٢٢/١-١٢٤.

(٢٥) م. ن ١١٧/١.

(٢٦) م. ن ٤٣/١.

(٢٧) م. ن ٣٠/١.

(٢٨) م . ن ٣٠١/١.

(٢٩) م. ن ١٨٥/١.

(٣٠) الحلة: مجموعة من البيوت.

(٣١) م. ن ١٤٩/١.

(٣٢) م. ن ١/١٧٩.
(٣٣) م. ن ١/٤٦.
(٣٤) م. ن ١/٥٠.
(٣٥) م. ن ١/٤٥.
(٣٦) م. ن ١/١٧.
(٣٧) م. ن ١/٢٥.
(٣٨) م. ن ١/٣٨.
(٣٩) م. ن ١/١٢٦.
(٤٠) م. ن ١/٢٤-٢٥ لا تكفر: لا تستر لا تخفر: لا ينقض عهدها.
(٤١) م. ن ١/٢٧.
(٤٢) م . ن ٢/٣٩٦.
(٤٣) م. ن ١/٢٤.
(٤٤) م. ن ١/٢٥، المروى: المفكر في نفسه.
(٤٥) م. ن ١/٢٧.
(٤٦) م.ن ١/١٧٩، القضيب: عصا رسول الله ﷺ.
(٤٧) م.ن ٢/٤٠٢.
(٤٨) م. ن ٢/٦٧ ، النجر: الأصل، حصحص: ظهر وانكشف.
(٤٩) م. ن ١/١٧-١٨.
(٥٠) م. ن ١/١٥٦.
(٥١) م. ن عيصه: أصله.
(٥٢) م. ن ١/٤٣، يساجلكم: يفاخركم أو يعارضكم.
(٥٣) م.ن، تقيله: اشبهه.
(٥٤) م.ن ١/٣١، مؤثل: مؤصل واضح الأصالة والشرف.
(٥٥) م.ن ١/٤٦، عزاليها: شدة مطرها.
(٥٦) م.ن ١/٢٥.
(٥٧) م.ن ١/٣٠٢، خلاق: نصيب.
(٥٨) م.ن ١/٣٨.

المصادر والمراجع:

١. تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٦م.
٢. تأريخ الطبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٣. تأريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، د. محمد علي أبو ريان، دار المعرفة الجامعية، ط٢، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
٤. ديوان البحتري، دار بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٥. عيون الأخبار، ابن قتيبة الدنيوري، تحقيق: د. محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، ط٢، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
٦. الكامل في التأريخ، ابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٣٩٩هـ.
٧. وفيات الأعيان، ابن خلكان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.